مَفاهيمُ التربيةِ السُّكانيَّةِ واستراتيجِياتُها

المهندس علي عبدو الإبراهيم
باحث

لا بُدَّ لي قبلَ أن أعرِضَ إشكاليةَ التربيةِ السكانيةِ من الدخولِ في عُمقِها التاريخيِّ وأسبابِها الأولى؛ للوقوفِ على خطِّها البيانيِّ ولإيضاحِ الفكرِ المُمهِّدِ لها من أفواهِ أهليها وسلوكياتِهم؛ فأهلُ مكَّةَ أدرى بشعابِها – كما يقولُ المثلُ– خُصوصاً بعد أن قرأتُ الورقةَ البحثيةَ المُقدَّمةَ من وزارةِ الثقافةِ بهذا الشأنِ وبعد أن تناقَشتُ مع سائحَينِ فرنسيين (JEAN PIERRE HUART) ورفيقته (FLORENCE) لمدَّةِ ستّ عشرةَ ساعة على مدى ثلاثةِ أيامٍ في حماةَ (أبي الفداء) حصل لي معلوماتٌ مفيدةٌ حولَ هذا الموضوعِ ديموغرافياً واجتماعياً.

واعذُرُوني للاختصارِ الشديدِ؛ فالأمرُ أعجلُ من عَرضِها كاملةً على بساطِ البحثِ؛ بَيدَ أنَّها ذِكْرى لأُولي الألبابِ.

منذُ أن وُجِدَ الإنسانُ غريباً على هذه البسيطةِ،اتَّخذَ في تصرُّفاتِه أحدَ سبيلَينِ, أو جمعَ بينهُما في بعضِ الأحايينِ، أو رتَّبَ العلاقةَ بينهُما من خلالِ التفكيرِ والتجربةِ.وعلمُ الآثارِ والتاريخِ دليلانِ عمّا مضى, بينما التجربةِ والمُمارسة والواقع أدلَّتنا للحاضرِ والمستقبلِ.

فالسبيلُ الأوّلُ هو الاستسلامُ للغرائزِ وإشباعِ الحواسِ الخمْس، والهوى واعتبارِ الحياةِ الإنسانيةِ مَبدؤها السمعُ والبصرُ والشمُّ والذوقُ واللمسُ، ومُنتهاها اللذةُ الجسديةُ بكلِّ ما في هذه الكلمةِ من معنىً، ومن هذا الاتجاهِ انبثقتْ الهيدونيةُ (HEDONISME) التمتعيَّةُ التي ترى أنَّ دوافعَ النشاطِ الإنسانيِّ تنحصرُ في التماسِ اللذةِ التي قال بها أبيقور (A.J.C (270–341) EPICURE) وصاحبهُ اريستيب (ARISTIPP) حتَّى سُمِّيت الأبيقورية (EPICURISME) مذهبَ الانغماسِ في المَلَّذاتِ السهلةِ.

والسبيلُ الثاني هو اتخاذُ الواقعِ والعقلِ والتفكيرِ مبدأً، وتركُ الهوى والأنانياتِ (الأناويَّاتِ) جانباً، وتقييمُ الحياةِ على أنَّها مبنيةٌ فعلاً وبدايةً على الغرائزِ لاستمرارِ الحياةِ العضويةِ ولكن ليست غايتها اللذةُ،؛ بل هي – أي الحياةُ –

امتحانٌ إنسانيٌّ كبيرٌ غايتهُ العطاءُ والخيرُ والفيضانُ؛ فالغريزةُ ليست سوى ألفباءِ الحياةِ، واللذةُ ليست إلاّ قطاعاً ضئيلاً لازماً لاستمرارِ هذه الحياةِ.

وإذا كان العاقلُ هو الذي يستفيدُ من تجربةِ الآخرينَ، لَبَنى صروحَ الفكرِ إلى جانبِ صُروحِ العلمِ الماديِّ التجريبيِّ،والأحمقُ مَن يُلغي هذه التجربةَ؛ فعلينا أن نقفَ قليلاً من بابِ المسؤوليةِ، وإتيانِ البُيوت من أبوابِها لنستعرِضَ المفاهيمَ الأساسيةَ التي أدَّت بنا إلى الاختناقاتِ التي تُحيقُ بالتربيةِ السكانيةِ (الديمغرافيةِ DEMOGRAPHIQUE)، أي لا بُدَّ لنا من تشخيصِ المرضِ بدقَّةٍ وأناةٍ، ومن ثمَّ تعيينِ الأدويةِ الناجعةِ لأبناءِ جلدتنا بني الإنسانِ على هذه الأرضِ...ولا يتمَّ ذلك إلَّا بالعقلانيةِ والتحرُّرِ من الخُرافةِ والعصبيةِ وبالشكِّ فيما نحملُ من جراثيمِ الفُرقةِ والطائفيةِ، وبإعادةِ النظرِ فيما لنا وما علينا بمحبةٍ وصدقٍ وتجرُّدٍ ونزاهةٍ.

يُحدِّثُنا التاريخُ القديمُ أنّ الأتروسكين (ATRUSQUES) منذ حوالي ستَّةٍ وعشرينَ قرناً قد جعلوا النساءَ مشاعاً لكلِّ الرِّجالِ ومن بعدهم كانت روما (ROME) محكومةً من قبلَ النُبلاء الذين يُعدُّونَ ٤٠٪ أربعينَ بالمائةِ من السكانِ ومحورِ حياتهم اللذة (LE PLAISIR) التي يشبعُها عملُ الأقنانِ، وقد صمَّمَ المُهندسون (ARCHITECTES) لأولئكِ المُتمتعينَ (HEDONISTES) حمَّاماتٍ عامَّةٍ تحوي صالاتُها ومقاصيرُها كلَّ ما لذَّ وطابَ لإمتاعِ الحواسِ؛ فالسمعُ بالموسيقا والغناءِ، والبصرُ بالنظرِ إلى مُغرياتِ الجنسِ الآخرِ في أعلى إغراءاتِ المتعةِ والإثارةِ والزينةِ، واللمسُ بالتلابسِ الجسديِّ الكاملِ تقبيلاً وممارساتٍ، والتذوقُ لأطيبِ المأكولاتِ والمشروباتِ،والشمُّ لأكثرِ الروائحِ عَبقاً وعطراً وأنداها لمساً وليونةً.. فإذا ما وصلوا ذُروةَ اللذةِ والامتلاءِ، انطلقوا إلى غُرَفِ التقيُّؤِ والانفلاتِ، وتغييرِ الأجواءِ والاغتسالِ؛ ليُعاودوا التعبُّدَ والتأليه للجسدِ واللذةِ والتمتُّعِ..

إنّ لذَّةَ الطعامِ والشرابِ تنحصرُ في حُليماتِ الذَّوقِ، ولا جمالَ حشويَّ كما يقولُ الفيلسوفُ الجَماليُّ بنديتوكروتشه (PENDITO KROTCHE) في كتابه (ESTHETIQUE) علمِ الجمالِ، كما أنّ اللذةَ الجنسيةَ (LE PHAISIR SEXUEL) هي بنتُ اللحظةِ واللحظةُ بِنْتُ الزَّوالِ.

كما يُحدِّثُنا التاريخُ أيضاً أنّ النساءَ كُنَّ منقسماتٍ إلى نساءِ اللذةِ،ونساءِ الولادةِ والإنجابِ.

ويُشيرُ القرآنُ الكريمُ إلى قومِ لوطٍ وأعمالِه الجنسيةِ الشاذةِ من سحاقٍ (LESBIANISME) ولواطٍ (HOMOSEXUALITE)

ولننتقلْ خُطوةً أُخرى باتِّجاهِ التاريخِ الحديثِ،ولنبدأ من يوميات الثورةِ الصناعيةِ في بدايات القرنِ الثامنِ عشرَ، عندما نزلَ الفلاّحونَ من قُراهم التي كانت تعجُّ بالظلّمِ وأنواعِ الفقرِ والعبوديةِ، وانطلقوا هاربينَ من عاداتٍ قاسيةٍ، تَعدُّ النظرةَ إلى المرأةِ خطيئةً،إلى أجواءِ المدينةِ العبقةِ برائحةِ اللذةِ المنفلتةِ من كلِّ قيدٍ؛ فلا تقاليدَ ولا خوفَ من العارِ.

وصُدِموا بأجواءِ الاستغلالِ وانتهازِ الحاجةِ للعملِ،وطبَّقُوا في كثيرٍ من الأحيانِ ميكافيليةَ الغايةُ تُبرِّرُ(تُسوِّغُ) الوسيلةَ مِمّا جعلَهم يتخلَّونَ عن كلِّ قيدٍ أخلاقيٍّ ليحصلُوا على لقمةِ العيشِ؛ فعانتِ المرأةُ أشدَّ المعاناةِ في الريفِ؛ حيث هربَ الشبابُ، وفي المدينةِ حيث الانتهازيةُ واستغلالُ الحاجةِ..وأجبِرَتْ على تقديمِ كثيرٍ من التنازُلاتِ.

ومارَسَ رجالُ الكهنوتِ دوراً سلبياً بوقوفِهم في صفِّ المُتسلِّطينَ الأقوياءِ الأغنياءِ مُقابلِ فَتاتِ موائدِهم..ولم يقفُوا عند هذا الحدِّ؛ بل حاولوا كبتَ الثورةِ في صدورِ الضُّعفاءِ، وخنقَ صوتِهم المطالبِ بالحقوقِ اليوميةِ فيَعِدونَهُم بالآخرةِ ويُمَنُّونَهُم بنعيمِها، وربَّما كتَبوا لهم صكوكاً للتأمينِ، ولقد كان ذلك شَفرةَ القطيعةِ التي لا عودةَ بعدَها بين السلطةِ الكهنوتيةِ وبينِ الفكرةِ الإنسانيةِ (HUMANISME) ممّا حدا بالفلسفةِ الوضعيَّةِ (POSITIVISME) أن تُطالبَ بإنزالِ الحُكمِ من السماءِ إلى الأرضِ.. وممَّا حدا بكارل ماركس (MARX KARL) أن يقولَ: إنَّ الدِّينَ أفيونَ الشعوبِ، ولم يكن ذلك سِوى صوتٍ مُتحشْرِجٍ في عالمِ الأوربا EUROPE المُكتنِزَةِ بالأنانيَّةِ (الأناويَّة)EGOISME الفرديةِ الطاغيةِ، وكانت رسائلُ فيورباخ FEUERBACH تنطلقُ بالتوترِ نفسِه وعلى المحورِ ذاتِه، ضائقةً بالتدَّيُّنِ الساذَجِ من ناحيةٍ، وحاقدةً على رجالِ الكهنُوتِ الذين يستغلُّونَ الدينَ لمصالحِهم وأنانياتِهم، وضائقةً أيضا بالفرديةِ التي تنفطِرُ عندها قلوبُ الضعفاءِ، وتتحجَّرُ فيها قلوبُ الأغنياءِ؛ فلا دواءَ إذنْ سِوى العنفِ والقسْرِ والحقْدِ، ولا نجُوعَ– حَلَّ– إلَّا بالديكتاتوريات والنارِ والحديدِ.

ولهذا فقد انطلقَ الفلاسفةُ والمفكِّرونَ والكنيسةُ– بما بقي لديها– والأدباءُ وأهلُ الفنِّ يُنظِّرونَ ويُنظِّرونَ..وأكثرُهم يتطرَّفونَ..،تقول الماركسيةُ MARXISME، إنّ الإنسانَ آلةٌ ميكانيكيةٌ؛ همُّها اللقمةُ GORGEE ومُنتهاها البطنُ...ولا إلهَ، والحياةُ مادَّةٌ،وفي هذه النظريةِ تتساوى قيمةُ الوردةِ الحمراءِ الندية التي يُقدِّمُها حبيبٌ لحبيبته الودودِ مع قيمةِ قطعةِ الخشبِ؛ لأنّ كليهما من الناحيةِ الماديةِ ماءٌ وكربون (H_2O–CO_2)

كما تقولُ التجربةُ..

- وتقول الفرويديةُ FREUDISME إنّ الإنسانَ يتمحورُ في أعضائه الجنسية؛ فلا انطلاقَ إلاّ منها، ولا قصد إلاّ إليها، ومن ذلك كانت نظريةُ الامتلاءِ PLEINITUDE للتجاويفِ الإنسانية، ومن هناك أخذت اللواطيةُ HOMOSEXUALITE شرعيَّتَها القانونية– كما نجدُ في بريطانية وغيرِها، وجاء الفيلسوفُ الإنكليزيُّ بنتام جرمي PENTHAM JERMY (١٧٤٨–١٨٣٢)م فطوَّرَ بشكلٍ خاصٍّ حساباتِ اللذائذِ للحصولِ على قِمَّةِ السعادةِ العُظمى، والتمتُّعِ الهيدوني للحواسِ.
- لقد طالبت الفرودية استنادا إلى خُرافتَي عقدة أوديب وعقدة إلكترا LES DEUX COMPLEXES DAUDIPE ET ELECTRE بفكِّ قيودِ الإنسانِ، ورفعِ وإزالةِ أسبابِ كبتِه DEFOULEMENT

وهي كلُّ تمسُّكٍ أخلاقيٍّ أو دينيٍّ أو عقلانيٍّ، ولا يعودُ الإنسانُ– حسب رأيها– إنساناً إلاّ بإلقاء هذه القيم وراءَه ظِهرياً.

- وقالتِ الوضعيةُ الأوغستيةُ.. POSITIVIME D AUGUSTE COMTE بوجوبِ كنسِ كلِّ الأفكارِ المُقتناةِ من الدِّينِ والجَمالِ والقيمِ..
- وجاءتِ النظريةُ النيهيليةُ (العدميةُ) NIHILISME المتشائمةُ في أساسِها، والمنطلقةُ من غثيانِ NAUSEE الأوضاعِ،وضياعِ المقاصدِ فكان تساؤلُها الوحيد QUE FAIRE ما العملُ في هذه الحياةِ الدنيا!..ثم بَنَتْ أفكارَها على قواعدِ الفوضويةِ ANARCHISMES SOCIAUX؛ ولذا قالتْ بتخريبِ ما أمكنَ، وبأسرعِ ما يُمكِنُ، كل البنى الاجتماعيةِ التحتيةِ INFRASTRUCTURES دون أيَّةِ نيَّةٍ بالتجديدِ، وكان من أبرزِ قادتِها دوبروليوبوف DOBRO LIBEOV 1836–1861 وبيساريف PISSAREV (1840– 1868 م).
- وقال نيتشه NIETZSCHE بضرورةِ قتلِ الضعفاءِ لعدمِ استحقاقِهم الحياةَ، كما قالت المالتوسية MALTHOSISME بتعقيمِ بعضِ الشعوبِ وقتلِ أنسالِها GENERATIONS ممن حسبتَهم سيقاسمونَ الأغنياءَ ــ الذين يستحِّقونَ الحياةَ حسبَ رأيها– لقمةَ عيشِهم.
- وخرجتْ علينا مدارسُ في الفنِّ والأدبِ، تزيدُ الطينَ بلةً؛ فقالت السرياليةُ SURREALISME بعقلِ العقلِ، وتركِ الشعورِ يجري دونَ قيدٍ أو تحكُّمٍ CONTROLE بحجَّةِ الصراحةِ والتحرُّرِ LIBERALISME وطالبوا بالتعرّي الجسديِّ والنفسيِّ؛ فكانتِ الإباحيةُ –LAISSER PASSER LAISSER FAIRE شعاراً للعلاقاتِ الجنسيةِ والاجتماعيةِ؛* فكانت نوادٍ للتعرِّي الكاملِ –المُزْري– STREEP –TEASE ونوادٍ للواطةِ والشذوذِ المثليِّ..، وأخذَ الكثيرونَ يعتبرونَ أنَّ مقولةَ سارتر J.P SARTRE لكي تكونَ منسياً يجبُ أن تكونَ حُرّاً LIBRE POUR ETRE OUBLIE IL FAUT ETRE هي قانونٌ للتخلِّي عن المسؤولية RESPONSABILITE تجُاه شرائعِ الزواجِ مثلاً وقوانينه الاجتماعيةِ، وتجُاهَ نتائجه من حملٍ وتَبنٍّ وتربيةٍ؛ فكلٌّ من الجنسينِ يُمارسُ العلاقاتِ الجنسيةَ ميكانيكياً دون أن يُفكِّرَ حتَّى بمَن يُعاشرُ.
- وقامتْ منذُ سنتينِ مظاهراتٍ في كندا CANADA تطالبُ بإزالةِ ما تبقَّى من خيوطٍ ورُقَعٍ تسترُ حلَمَةَ الثدي والأعضاءَ الجنسيةَ.
- وجاءتْ نظرياتُ الوحشيةِ FEROCISME والدادائيةُ DADAISME لتُكملَ النخرَ الفكريَّ التائهَ، وتُطالبَ بتخريبِ البنى الفكريةِ والفنيَّةِ، ولتزيلَ ما تبقَّى من القيَمِ والتدَّينِ والخُلُقِ، ولتنْشُرَ العَبثيَّةَ ABSURDITE في كلِّ شيءٍ.

- لقد طالبَ دور كهايم DORKHEIM 1858_1917 بتمزيقِ أوصالِ الأسرة؛ حتى لا يكونَ الفردُ مسؤولاً عن ارتباطٍ أسريٍّ ثقيلٍ؛ فالفردُ مقدَّمٌ على الجماعة.. والفردُ يعبدُ نفسَه في مدرسةِ التطرُّفِ الفرديِّ INDIVIDUALITE ومنعتْ فرنسا عام (١٩٠٥) تدريسَ العلومِ الكهنُوتيةِ في مدارسِها الرسمية؛ حيث ترعرعتِ العلمانيةُ LAIQUE بشكلٍ أكثرَ حُرِّيةً ووضُوحاً.
- وطالبَ فيلسوفُ الألمانيةِ الحديثةِ كارل ياسبرز CARL JASPERS بالتوجُّهِ إلى اللحظةِ يقتنصُها المرءُ ليكونَ وُجودياً،وقد استندَ إلى أنَّ العلمَ قد فشلَ في حلِّ مُشكلاتِ الإنسان كُلِّها، ومن ذلك فشلَ الإنسانُ ذاته بمعرفةِ الوصولِ إلى السعادةِ الحقيقيةِ أهي في فضيلةِ KANT أم في لذَّةِ أبيقور EPICURE؟ فكانت الأولى صارمةً، والثانيةُ مائعةً، والإنسانُ بينهُما لحمٌ ودمٌ لا يصمدُ للأُولى ولا يَتَمَيَّه مع الثانيةِ والموقفِ بينهُما دونَ مُرجِّحٍ أصعبُ وأقسى.

وبطريقةٍ ميكافيليةٍ MACHIAVELISTE انتهازيةٍ، سارعتِ الوجوديةُ السارتريةُ EXISTENTIALISME DE J. P. SARTRE مستفيدةً من مصائبِ الحَربَين العالَميتين، ومُستندةً إلى وقائعِ الملايينِ التي ذهبتْ ضحيةَ الجُنونِ والتعصُّبِ والعرقية، وإلى ضرورةِ إيجادِ حلٍّ ناجعٍ للإنسانيةِ المصلوبةِ في عُقرِ دارِها، سارعتْ إلى إلباس عجوزِ أبيقور الهيدونيةَ HEDONISME ثوباً جديداً من أزياءِ القرنِ العشرين، وقالت بوجوبِ انقطاعِ الإنسان عن تاريخيته، بعُجَرِها وبُجَرِها؛ خُصوصاً أنّ الإنسانَ لم يستفدْ منها في تجنبِ ويلاتِ الحرب، وبلاءِ الملايين، وقالت أيضاً بعَدمِ مدِّ النظرِ بعيداً باتِّجاه المستقبلِ؛ لأنّ الإنسانَ لا مستقبلَ له، ووجودَ الإنسانِ عَبَثٌ، والتفكيرَ بمصيرِ البشريةِ يدعو إلى الغَثَيان NAUSEE فما علينا إلاّ المسارعةُ إلى اللحظةِ الحاضرةِ الآنيَّة INSTANTANE نقتنصُها، تمتُّعاً والتذاذاً وبأسهلِ الطُّرقِ وأسرعِها.

ذلك شيءٌ يسيرٌ من تناقُضاتِ الفكرِ الغربيِّ ومُشكلاته؛ فلقد اختلَفوا في كلِّ شيءٍ – في الجَمالِ والفنِّ والعلمِ، في الإنسانِ والكونِ والحياة، في الثقافةِ والدِّينِ والقيَمِ – وجاءتِ المقالاتُ مُتناقضةً، مُتطرّفة ولا توصلُ إلى راحةٍ نفسيةٍ، لفقدانِ الثوابتِ المقنعةِ والمرجِّحاتِ العقلانية، والفكرِ البصير، وكثيرا ما كان يغلب عليها التشاؤمُ والطِّيَرَةُ PESSIMISME وهذا إنذارٌ بسقوطِها، كما نرى في مقولاتِ شبنغلر SPINGLER في كتابِه تدهورُ الحضارةِ الغربيةِ والتي يرسمُ فيها المناحي المُنزلقةِ في هذا الفكر.

فأين تتَّجه السفينةُ؟! وأين هي شواطئُ الأمان؟! وأنّى للمُرساةِ أن تجدَ مُستقرَّها؟!.

طالبَ نيتشه NIETZSCHE بالانتحارِ SUICIDE لكلِّ شخصٍ لا يجدُ لنفسه معنى في هذا الوجود.. ولبّاهُ الكثيرونَ.. الكثيرونَ.. ومنهُم المغنّيةُ الشّهيرة داليدا DALIDA وقد بيعَ في اليابانِ في بدايةِ عام ١٩٩٤، ٥٥٠٠٠٠ نسخةً من كتاب أفضلُ طُرقِ الانتحارِ وبلغتْ نسبةُ المنتحرينَ أعلاها في أرقى دولِ العالَمِ مدنيةً، وهي الدولُ الاسكندنافيّة كما تُشيرُ إلى ذلك الإحصاءات.

وقالت الطبقةُ الفعَّالةُ في الهرمِ الديمغرافيِّ من الجنسِ اللّطيفِ في العالَمِ المتقدِّمِ جداً في الدولِ الاسكندنافيّة، لماذا نتحمّلُ مسؤوليةَ الأطفالِ حَملاً وتربيةً، سَهراً وعَذاباً، ونعطِّلُ أشكالَ أثدائنا وأردافنا، إذا كانتِ الحياةُ لذَّةً لحظيةً نقضيها في أيّ زمانٍ ومكانٍ؟، ومن هنا بدأ الاغترابُ الحقيقيُّ للإنسانِ عن معنى الحياةِ ومن هذا الفكرِ الآني الهشّ جاءت التحوُّلاتُ الديمغرافية الخطيرة، وتفتَّتَ الهَرَمُ الديمغرافيُّ؛ فبينما يتساقطُ الشيوخُ في أعلى هذا الهرمِ تتخلخلُ قاعدتَه الكُبرى من الأسفلِ فلا بدائلَ ولا تعويضَ، ولو قدّمتِ الدّولةُ كلَّ ما تحتاجُه الأمُّ من تكاليفَ ماديّةٍ، فهذه الأمُّ غنيَّةٌ في كلِّ شيءٍ – في هذه المجتمعاتِ الغربيةِ الماديةِ– إلاّ في المبادئِ والقيَمِ والعطاءِ والفيضانِ؛ فأخلاقياتُ المجتمعِ لم تَعُدْ تقنعُها ببناءِ أُسرةٍ.. ومن هنا جاءت أُولى الدّعواتِ لإنشاءِ التربيةِ السكانيةِ؛ بسببِ انخفاضِ الولاداتِ كما دلَّتِ الإحصاءاتُ أنَّ سكانَ فرنسا منذ عام ١٩٥٠ EDUCATION DEMOGRAPHIQUE من السويد بالذاتِ عام ١٩٣٥ لم يزْدَدْ عددُهم، وأن تزايدَ السكانِ في اليابانِ ضئيلٌ جداً؛ ممّا يجعلُ هذه المجتمعاتِ في حالةِ شيخوخةٍ مُتراكِبَةٍ مُتفانيةٍ والفتوَّةُ فيها في حالةِ ضُمورٍ أو توقُّفٍ ممّا ينبئُ بانهيارِها لعدمِ وجودِ البدائلِ الفتيّةِ، كما تقولُ إحصاءاتُهم وتقاريرُهم.

وهنا تتحقّقُ مبادئُ برودون PROUDHON أبي الفوضويةُ وتكهُّناتُ دوركهايم DORKHIEM بتفتيتِ الأسرةِ، وأولوياتُ كروبوتكين KROPOTKINE وBAKONINE باكونين القائلينَ: خرِّبُوا كلَّ ما هو موجودٌ، دون تمييزٍ وبطريقةٍ عمياءَ. وهنا تتحقّقُ أيضاً أساسياتُ أبيقور EPICURE وسارتر J.P. SARTRE وكامي A. CAMUS اللحظيةَ اللّذيّةَ LE PLAISIR INSTANTANE وتتحقَّق أيضاً نظرياتُ فرويد FREUD الداعيةُ باسم إزالةِ الكبتِ.

DEFOULEMENT إلى التفلُّتِ من كُلِّ قيدٍ أخلاقيٍّ أو جَماليٍّ ESTHETIQUE لينتشرَ التعرِّي STREEP–TEASE على أنّه حريّةٌ وصَراحةٌ– ولكنه إباحيَّةٌ وفضائحيَّةٌ–، فاللّباسُ كبتٌ للجسدِ الذي ينشدُ اللذةَ في كلِّ مكانٍ وآنٍ (زمكانيٍّ).

ولينتشرَ بعدَها الشذوذُ الجنسيُّ الفاضحُ على أنّه حقٌّ مقدّسٌ – وأُعيذُ المقدّسَ– لكلِّ فردٍ، ولا قيودَ وشروطَ على الفرديّةِ INDIVIDUALISME وليكثرَ التائهونَ والمُشرَّدُونَ والمُتسكّعونَ من كلوشار CLOCHARDS وهبيينَ HIPPIES يعيشونَ على هامشِ الحياةِ، مآويهم الأرصفةُ والزوايا المُظلمةُ، عليها يُمارسونَ اللذةَ، ويتوالدونَ أحياناً وهم يرفضونَ القيمَ الاجتماعيةَ، وينشدونَ التحرّرَ من كلِّ قيدٍ شرعيٍّ أو قانونٍ اجتماعيٍّ.

ومن هُنا دُقَّ ناقوسُ الخطرِ، وجاءتِ الإنذاراتُ بالويلِ والثبورِ، وتبنَّتِ الحكوماتُ والمنظّماتُ الدوليةُ، كاليونسكو UNESCO حلولاً للمشكلاتِ المتعدِّدةِ وعلى رأسِها ما يتعلَّقُ بالاقتصادِ والنُّموِّ والمشكلاتِ السكانيةِ – عدَداً وكمّالاً ونوعاً وفكراً وكيفاً–.. وأخذَ المُنظِّرونَ والفلاسفةُ والاقتصاديّونَ يُحاولونَ إيجادَ الحلولِ، وأعماهم الهوى والاستناداتِ الموروثةِ الجاهليّةِ، فلم يأتوا البيوتَ من أبوابِها، فما كان إلاّ أنْ سمَحوا – أخيراً – في السويد بالزواجِ –

السِّفاحِ – من الأختِ والعمّةِ والخالةِ؟؟! للحفاظِ على هَرَمٍ ديمغرافي عجوزٍ.. ولا دواءَ للشيبِ غيرُ الانهيارِ.. ومع كلِّ ذلك انخفضَت نسبةُ الولاداتِ كما جاء في الورقةِ البحثيّةِ التي نشرتْها منظمةُ اليونسكو رغمَ كُلِّ التشجيعِ والضماناتِ.

وطالَبَ الأميركيُّ هوبز HOBZ بإدخالِ الدّراساتِ الديمغرافيةِ في المدارسِ وتعليمِ الأجيالِ المُمارساتِ الجنسيّةِ بأساليبَ يَعتبرونَها حضاريّةً ولكنَّها تصبُّ جميعاً في بُؤرةِ اليأسِ الخانقِ؛ فمِن مُطالَبةٍ باختلاطاتٍ ساحقةٍ مُتطرّفةٍ إلى منعٍ ساحقٍ مُتطرّفٍ.. ويتمُّ ذلك عبرَ المُلصَقاتِ ووسائلِ الإعلامِ بمختلفِ سُبلِها وأشكالِها.. ولكنَّ كلَّ ذلكَ كان يَصطدمُ بفكْرٍ مَوروثٍ مشوشٍ، أو تَمرُّدٍ ثائرٍ طائشٍ استناداً إلى خلفيّاتٍ ثقافيةٍ مُزعزعةٍ متبلّدةٍ.

وعُقدَتْ ندواتٌ ومؤتمراتٌ في (بانكوك وداكار والقاهرة، وفي الرباط وعمّان)، ويُعقَدُ في الخامسِ من الشهرِ التاسع ١٩٩٢ مؤتمرٌ عالمي للسّكّانِ، وفي كلِّ هذه المؤتمراتِ والندواتِ تشملُ البحوثُ مسائلَ الجنسِ وممارستَه، وتأخذُ المشكلاتُ السكّانيةُ في الدولِ غيرِ الأوربيةِ والولاياتِ المتحدةِ اتِّجاهاً مُعاكساً.

فبينَما تُطالبُ أوربا والولاياتُ المتحدةُ سُكّانَها بالازديادِ، تطالبُ الدولُ الأُخرى بالحدِّ من التزايدِ السكانيِّ عن طريقِ رفعِ سنِّ الزواجِ، ومحاولاتِ السماحِ بالإجهاضِ، دون أن تضعَ بالحُسبانِ نتائجَ هذه الوسائلِ، ودون أنْ تضعَ في الاعتبارِ مُقوماتِ هذه الدولِ الاقتصاديةِ من خلالِ القُدراتِ المُتاحَةِ والمَخبوءةِ بشرياً واقتصادياً.

وإذا عُدنا إلى وُجُهاتِ نظرِهم ندرسُها علميّاً، مُستندينَ إلى البحوثِ النظريةِ والواقعِ الكامنِ، لوجَدنا أنَّ التزايداتِ السكانيةَ في دُولِ العالمِ غيرِ الصناعيةِ – وأقصدُ البلادَ الناميةَ– تزايداً غيرَ علميٍّ؛ بل هو هوجائيٌّ ديماغوجيٌّ يُثيرُ الذُّعرَ ويدعو لإعادةِ النظرِ في اغتنامِ واستغلالِ ما لدينا من وقتٍ وكنوزٍ، وهل تتلاءمُ مع التزايداتِ السكّانيةِ؟

وحسبَ النظريةِ المالتوسيةِ MALTHOSISME المتشائمةِ – والتشاؤمُ هروبٌ من مواجهةِ الحياةِ، واستغلالِ الطبيعةِ، وموتٌ داخليٌّ لدى أصحابِه –؛ فإنَّ مصادرَ الرزقِ غيرُ كافيةٍ للتزايداتِ السكانيةِ المُتصاعدةِ بسلسلةٍ هندسيةٍ/ في كلِّ ثانيةٍ يُولَدُ ثلاثةُ أشخاصٍ يموتُ واحدٌ ويبقى اثنان/ حسبَ الإحصاءاتِ الدوليةِ، والأرزاقُ تتزايدُ أيضاً ولكن بسلسلةٍ حسابيةٍ، ممّا يُضفي – حسبَ هذه النظريةِ – عبئاً ثقيلاً على التنميةِ DEVELOPPMENT.. ولكن أينَ مكمنُ العَيبِ هنا؟!

إنَّ عدداً كبيراً من العلماءِ الاقتصاديينَ يَرونَ أنَّ هذه النظريةَ لا تعدو أن تكونَ شِبْهَ خُرافةٍ MYTHE؛ لأنَّ العيبَ ليسَ بقلّةِ الطاقةِ ومصادرِ الرِّزقِ؛ بل العيبُ بالإنسانِ الذي لمّا يستثمرها حتّى اليوم.. فعوالمُ البحارِ والصّحراءِ والطاقةِ الشمسيةِ هائلةٌ.. هائلةٌ لا يستنزفُها الإنسانُ بتزايداتِه الهندسيّةِ لآلافِ السنينَ المقبلةِ، وما عليه إلّا أن يلْبسَ لأمَتَهُ ويَشدَّ العزمَ ويستثمرَ الملايينَ العاطلةَ عن العملِ، والملايينَ التي تُضيِّعُ الوقتَ سُدىً، في عملٍ مُثمرٍ بنّاءٍ، يتقاسَمُه بنو الإنسانِ بالعدلِ والعلمِ والمنطقِ والغَيريَّةِ.

وهُناكَ مشكلةٌ ثانيةٌ، تستدعي التربيةَ السكانيةَ، وتفوقُ مشكلةَ الإطعامِ والإشباعِ، وهي مشكلةُ السيرِ بالإقناعِ لسلوكِ السُّبلِ التي تنظِّمُ العلاقاتِ الفرديةَ والأسريةَ والمجتمعَ الإنسانيَّ – ودونَها يستحيلُ حلُّ المشكلةِ– وهذا ما يستدعي عرضَ مُسوِّغاتٍ عقلانيّةٍ واقعيةٍ مشتركةٍ، تكون القاعدةَ للجميعِ، ويجب أن تستندَ إلى مُشكلاتِ الإنسانِ الحضاريةِ بالدرَجةِ الأُولى وتقومُ على فهمِه لنفسِه ولعلاقاتِه بالكونِ والحياةِ، ولا يقومُ ذلك إلاّ على تعاريفَ دقيقةٍ TERMINOLOGIE تضعُ الإنسانَ في مكانِه اللائقِ الصّحيحِ، فلا هو إلهٌ –؛ لأنَّ لحواسِّه عتباتٍ محدودةُ البدايةِ والنّهايةِ، ويتبعُها استناداتُ حَدسِه فعَقلِه– ولا هو شيطانٌ يعيشُ الترابَ ويغفُلُ عن وظيفتِه ومقاصدِه؛ بل يملكُ الجسدَ الذي تشكّلُه إحداثياتُ الترابِ وتُمارِسُ قدماهُ عليه حياتَه الماديَّةَ، والنفسُ المحلِّقةُ في السماءِ ترفُّعاً وتساميا وفَيضاناً على الآخرينَ، ولا ينفصلُ أحدهُما عن الآخرِ؛ ولذا فهو يبدأُ من الواقعِ وهو ألفباءُ الجَمالِ ESTHETIQUE وينطلقُ نحو المثالِ مُختاراً بالنيّةِ والفعلِ، باتّجاهِ قِمَمِه ونَشوتِه، ومن ذلك، وعبرَ هذه الصورةِ الحقيقيةِ والربطِ المُحكَمِ يستطيعُ حلَّ مُشكلاتِه، وتعودُ مسائلُ (الزواجِ وتحديدِ سِنِّها، وعددِ الأولادِ، ومدّةِ الاستراحةِ بين حَملَينِ والتعليمِ للجنسينِ) أموراً قابلةً للحلِّ، من خلالِ مُعطياتٍ أكثرَ وُضوحاً وإقناعاً وتنظيماً.

وما علينا – وحسبَ توجيهاتِ الأممِ المتّحدةِ نفسِها– إلاّ أن نتَّخذَ المواقفَ الواضحةَ؛ فمَن لم يتّخذْ مَوقفاً، فليسَ بموجودٍ على ساحةِ الفعلِ، كما يقولُ كانت KANT في فلسفتِه الأُولى عن فيخته FICHTE لنتصرّفْ، لنتصرّفْ، فهذا سببُ وجودِنا في هذه الحياةِ الدنيا، وبالفرنسيّة –NOTRE RAISON DETRE ICI BAS AGIR, AGIR, VOILA ولكي نتصرّفَ، علينا بالفهمِ والمعرفةِ للإشكالاتِ المَعروضةِ، وتقويمِها، والحُكمِ عليها، ثمَّ اتّخاذِ القرارِ الملائمِ لها، على أن يكونَ واقعيّاً عقلانيّاً، يهدفُ لخيرِ الإنسانيةِ جمعاءَ، ووسيلتُه الأساسُ الإقناعُ والعدلُ والمسؤوليّةُ.

ويَتطلَّبُ عَرضُ المشكلةِ السكانيةِ أمرَينِ مُهمَّينِ:

١. إحصاءاتٍ علميّةً اقتصاديةً تستندُ إلى البِنى التحتيّةِ؛ من حيثُ الموارِدُ المتاحةُ بشكلٍ مباشرٍ؛ أيّ التي هي قيدُ الاستثمارِ (زراعةٍ، صناعةٍ، سياحةٍ، وآثارٍ..) وبشكلٍ غيرِ مباشرٍ (الأراضي غيرِ المُستثمرةِ، والطّاقةِ المائيّةِ، والرّياحِ، والمعادنِ وغيرِ ذلك..) وهذا ما يحتاجُ إلى مُختصّينَ، ويدٍ عاملةٍ، وتِقنيّاتٍ.. وعلى الدولةِ أن تسعى جاهدةً لتكوينِ هذه التركيبةِ التي لا يُمكنُ الاستغناءُ عنها.

٢. البحثَ التربويَّ الدؤوبَ عن السُّبلِ التي تقنعُ الناسَ باغتنامِ وقتِهم بشكلٍ يعودُ بالخيرِ الماديِّ والمعنويِّ على الأفرادِ والجماعاتِ؛ ممَّا يكفلُ العملَ للجميعِ، ويتمُّ ذلكَ بفتحِ أبوابٍ جديدةٍ لاستثمارِ موجوداتِ الوطنِ بشكلٍ نافعٍ؛ ممّا يدفعُ بالبطالةِ خارجاً.. وعلى أساسِ المُعطَياتِ الاقتصاديّةِ والتربويةِ نبحثُ مشكلةَ السُّكّانِ والإسكانِ، ويمكنُ عندَها فقطْ معرفةُ سيرورةِ التنميةِ، ومدى تلاؤمِ الوضعِ الديمغرافيِّ مع الواقعِ والمُمكنِ.

ولا يتمُّ حلُّ المشكلةِ الديمغرافيّةِ /وغيرِ الديمغرافية/ بإدارةِ ظهرِنا للمشكلةِ الحقيقيّةِ، حاسبينَ أنّ تزايدَ السكانِ هو المشكلةُ –كما تُحِبُّ أن تُروِّجَ له بعضُ الدوائرِ التي لها علاقاتٌ خاصَّةٌ بمُجتمعاتنا– فإذا كانتْ طاقةُ الجزيرةِ الفُراتيةُ السوريةُ وحدَها تكفي مَثلاً حوالَي ستَّةَ عشرَ مليوناً من الناسِ بمستوىً عالٍ جداً، وإذا كانت السّودانُ تُعَدُّ سلّةَ الغذاءِ الوفيرة لها ولما حولَّها من البُلدانِ، وإذا كانتِ الصَّحراءُ في الجزيرةِ العربيةِ تحتوي على مياهٍ كما تحتوي على بترولٍ – كما يقولُ الخُبراءُ– وإذا كانتِ اليمنُ تُسمَّى باليمنِ السعيدِ، وتُونُسَ بتُونسَ الخَضراءِ؟؟.. إذا كان كلُّ هذا فلماذا تستجدي هذه الدولُ المساعداتِ الخارجيةِ، وتعيشُ عالةً على فُتاتِ دولٍ تستغلُّها حتّى الثُّمالةُ وتعيشُ الفقرَ والفقرَ المُدقعَ أحياناً؟؟.. وهل يجوزُ لنا أن نُطالبَ بتنقيصِ عددِ السّكّانِ لمجرّدِ أنّنا لم نستثمرْ اقتصاديّاتنا بالشكلِ الصحيحِ؟!.. إنَّ العيبَ فينا، وليسَ في الموارِدِ المُتوفِّرَةِ في مختلفِ أصقاعِ الكرةِ الأرضيةِ، وبلادُنا العربيةُ – مَثلاً– تعيشُ على بَحرٍ من الآثارِ، وفيها من الثرواتِ على تنوّعاتِها ما يكفي ويزيدُ لأضعافِ سكّانِ الوطنِ العربيِّ ولفتراتٍ طويلةٍ جداً ونحنُ لَمّا نستثمرْ من المحيطِ جَدولاً صغيراً.. ولكنَّ المشكلةَ هي مشكلةُ الإنسانِ ليس إلاّ.

إنّ العلمَ الحديثَ في ثورتِه الصناعيةِ الثانيةِ، بأتمتاتِه AUTOMATISMES والكترونيّاتِه ورسائلِه وأطروحاتِه في طُرقِ التعليمِ والتعلُّمِ؛ لتُتيحَ لنا أن نُعيدَ التفكيرَ بطُرقِ استثمارِ مَكنوناتِ الطبيعةِ، فهي مُسخّرةٌ للإنسانِ، وما عليه إلاّ أن يُضاعفَ الجهدَ، ويُحسنَ التصرُّفَ، ويُخلصَ النِّيَّةَ، ويُحدِّدَ الهدفَ ويسموَ بالغايةِ.

ولقد صرّفَ فريدمان FRIDMAN في معالجتِه في الفراغِ LOISIR الناجمِ عن المَكنَنَةِ MECHANISME تصريفاً سطحيّاً؛ ففرَّغَ الطاقةَ الكامنةَ لدى الناسِ في الرِّياضةِ SPORT والمسرحِ THEATRE والتلفزةِ T.V ولم يُعمِّقهُ بالكتابِ والتمحيصِ وإعمالِ الفكرِ؛ فأصبحتْ ثقافةُ الفردِ الأوربيِّ ضحلةً واهيةً كما يقول الشاعر الفرنسي غيلليفيك GUILLIFIC.

إنّ شحناتِ الطاقةِ الموجودةِ لدى أهلِ البطالةِ البالغِ عددُهم في أوربة اليومَ (٤٣٠٠٠٠٠٠ ثلاثة وأربعين مليوناً)، يُمكنُ استغلالُها في فتحِ أبوابِ عملٍ جديدةٍ مُثمرةٍ لو كان المجتمعُ بارعاً في تقديمِ البدائلِ، عارفاً أهدافَه المستقبليّةَ، فهي بدلاً من أن تكونَ طاقةً سلبيّةً تُشكِّلُ عاملَ هُروبٍ من المجتمعِ وتُوهي النسيجَ المُجتمعيِ، تصبحُ فعلاً إيجابيّاً يحفظُ هذا المجتمعَ ويُقوّيه ويجعلُ منه طاقةً احتياطيّةً للمواردِ المكنوزةِ في كلِّ مكانٍ.. وهي تنتظرُ مَن يُخرجُها إلى عالَمِ الفعلِ والوجودِ.. ولكنَّها مُشكلاتهُم بالدّرجةِ الأُولى، ومُشكلاتُنا بالدرجةِ الثانيةِ والعاقلُ مَن اتَّعظَ بغيرِه.

إنّ مشكلةَ الهجرةِ EMIGRATION من الريفِ إلى المدينةِ، لتُشكِّلَ أطروحةً سلبيةً، اجتماعيةً واقتصاديةً، خطيرةٌ من جهَتين اثنتَين:

أُولاهُما: تعطيلُ الإنتاجيةِ الضروريةِ في الريفِ، وهي مصدرُ الرزقِ للريفِ والمدينةِ على السواءِ.

وثانيهما: تشكيلُ عبءٍ ديمغرافيٍّ إسكانيٍّ RESIDENTIEL وسُكّانيٍّ DEMOGRAPHIQUE وتحميلُ الأشياءِ ما لا تحملُ.

ويعودُ ذلك لعدمِ إشباعِ هذا الريفِ بحاجيَّاته الأساسية ومصالحه الإنسانيّة؛ حتى تستقيمَ حياتُه فيشعرَ بالعدلِ والمساواةِ والاستقرارِ، وعندها فقط يمكنُه أن يتفاعلَ، ويُبدعِ، ويُفجِّرَ طاقاته خيراً وعطاءً للآخرينَ.

إنّ حيويّةَ دورِ المرأةِ في الأسرةِ والمجتمعِ – أخلاقياً وتربوياً – من جهةٍ، و– مادِّياً واقتصادياً – من جهةٍ ثانيةٍ لهو الكِفَّةُ الثانيةُ في ميزانِ الفعلِ الإنسانيِّ مع الرجالِ؛ فلكلٍّ مسؤولياتهُ وحقوقُه – ديمغرافيّاً وحضارياً –؛ فإنْ كانت النساءُ إمَّعاتٍ PSITTACISTES هَمّهُنَّ الأزياءُ والألوانُ، وإرضاءُ المتعةِ الجسديةِ، فقد نَزَلْنَ من قِمَمِ المعاني إلى حضيضِ الابتذالِ والرُّخَصِ، فكلمةُ أُمّ معناها: أصلٌ، وأرُومَةٌ ومَنبعٌ، فإنّ تلوّثَ المنبعِ الصافي، فماذا يشربُ الرائدونَ من أطفالٍ وأزواجٍ؟!.

إنّ اتِّخاذَ المرأةِ موقعَها، جانبَ الرجلِ، كلٌّ في مجالِه بحُبٍّ ومَودَّةٍ، لهوَ العملُ الخلَّاقُ المثمرِ في كلِّ مجالاتِ الحياةِ، الديمغرافيةِ، وغيرِ الديمغرافيةِ.

ولابُدَّ لي قبل أنْ أختم، من أنْ أُذكِّرَ أُولي الألبابِ؛ من قادةِ الفعلِ في هذه الأمّةِ أنّ ثمّةَ مشكلةً كبيرةً نُعاني منها نحنُ أكثرَ من غيرِنا ألا وهيَ: أنّ المعلوماتِ العلميةَ والإحصاءاتِ والمُقترَحاتِ الجادَّةَ من مختلفِ الاتِّجاهاتِ لا تُؤخَذُ بعينِ الاعتبارِ، ولا تُعادُ دراستُها في كثيرٍ من الحالاتِ؛ بل هي – ويا للأسفِ الشديدِ – كلماتٌ تُلقى في احتفالاتٍ، ويَشفعُها المُكاءُ والتَّصديةُ CLAQUEMENT ET SIFFLEMENT – التصفيرُ والتصفيقُ، فكيف نُقنعُ الناسَ، ونحن على جُرُفٍ هارٍ من التطبيقِ؟؟!

وقد كَبُرَ مَقتاً عِنْدَ اللهِ، ثُمَّ عندَ أولي النُّهى العاقلينَ أن نقولَ ما لا نفعلُ.

إنّ علومَ الصِّحَّةِ والاجتماعِ والجغرافيةِ والتاريخِ والاقتصادِ، وعلومِ النفسِ والبيولوجيا والفيزيولوجيا وعلومِ الطبيعةِ لَهي المقوِّماتُ الأساسيةُ لبحوثِ السُّكَّانِ والإسكانِ، ولا يُمكِنُ إغفالُ أيٍّ منها، وهي تتداخلُ مع بعضِها كما تتداخلُ ألوانُ قوسِ قُزَحٍ.

إنّ التوصياتِ CONSEILS الأساسيةَ في علمِ السكانِ والتربيةِ السكانيةِ تستندُ على النقاطِ الاستراتيجيةِ (الرُّؤى البعيدةِ) الآتيةِ:

١. تقديمِ نظريّةٍ أخلاقيةٍ واضحةٍ، تستندُ إلى العلمِ والعقلِ والتجربةِ؛ لبناءِ الإنسانِ المقتنعِ المؤمنِ باللهِ والوطنِ والإنسانِ –يَعرِفُ ما لَه، وما عليه– ويُمارِسُ دورَه الإيجابيَّ الفعَّالَ بمَحبَّةٍ وقناعةٍ.

٢. العملِ الجادِّ لاستثمارِ الطاقةِ الماديةِ والبشريةِ المُتاحةِ بأقلِّ قَدرٍ مُمكِنٍ من الهَدرِ– رجالاً ونساءً– باتِّجاهٍ إيجابيٍّ فعَّالٍ، بالقلمِ، والمعولِ، لاستثمارِ الموارِدِ المُستخرَجةِ ومَخبوئِها، وهي مِلْكٌ للجميعِ، ويَجبُ مُساعدتُه من قِبَلِ الدولةِ، وتشجيعُه على البحثِ والتنقيبِ، والممارسةِ.

٣. وضعِ برامجَ واضحةٍ للحياةِ الأسريةِ من قِبَلِ الزَّوجَينِ يُقرِّران فيه – دونَ قسْرٍ– زيادةَ الإنجابِ أو نقصانَه –ضمنَ روابطَ أخلاقيةٍ – ويتمُّ التنظيمُ بالعَزلِ SEPARATION أو التباعُدِ بينَ الحُمول (حمل الطفلِ)، أو تحديدِ

سِنِّي الزواجِ لأبنائِهم وبناتِهم، آخذينَ بعينِ الاعتبارِ الموضوعَ التربويَّ OBJET EDUCATIF قبلَ الموضوعِ الاقتصاديِّ OBJT ECONOMIQUE فالذينَ يموتونَ ويُميتونَ مِن قلَّة التربيةِ وسُوئِها، أكثرُ بكثيرٍ من أولئكَ الذين يموتونَ من الجُوعِ, وها هو الانتحارُ الفرديُّ، والإيدز CIDA ينحرُ وينخرُ المجتمَعاتِ الأغنى، والأكثر تُخمَةً وترفاً في عالَم التقدُّمِ المادِّي لغيابِ الموضوعِ التربويِّ، والاقتناعِ النفسيِّ؛ وذلك بسببِ خواءٍ استحكمَ في الصّدور، وقفْرٍ في الأصولِ والأخلاقِ والقيَمِ.

٤. عَرضِ المشكلاتِ التي تُواجِهُنا – بجُرأةٍ وثقة– والبحث عن حلولٍ وعدمِ التقوقعِ أو الهروب، وعلينا ألاّ نبْخَسَ الناسَ أشياءَهُم؛ بل أن نستفيدَ مِن تجربةِ الآخرينَ، مُقتنعينَ أنَّ (الزَّبَدَ سَيَذْهَبُ جُفاءً، وأنَّ ما ينفَعُ الناسَ سَيَمْكُثُ في الأرضِ)، وما علينا إلاّ أن نستنبطَ بعقولٍ مُنفتِحةٍ، وأن نسمَعَ ما يقولُه الآخرونَ بآذانٍ واعيةٍ، وأن نقولَ كلمةَ الحقِّ ونُدلي بدلْوِنا، كُلٌّ حسبَ اختِصاصِه، ف الحريّةُ الداخليةُ فكرٌ، والحريّةُ الخارجيةُ تصرُّفٌ، كما يقولُ فيختِه FICHTE.

إنّ في بُعدِنا عن تقصِّي الحقائقِ احتقاراً لعُقولِنا التي تُميِّزنا عن سائرِ المخلوقاتِ، وتخليةً لأنفسِنا عن المسؤولياتِ والأماناتِ التي في أعناقِنا تجُاهَ أنفسِنا وأبناءِ جلدتِنا على وجه هذه المعمُورة.

تعالَوا لنرَى بعينِ البصيرة– ماذا يجري حولَنا لا لنَتشاءَم؛ بل لكي نتجنّبَ:

- إنّه الغرقُ الجَماعيُّ الكبيرُ في كلِّ مكانٍ..
- إنّه الإيدزُ والانتحارُ والحروبُ والمشكلاتُ الاجتماعيةُ والسكانيةُ..
- إنّه البطالةُ والتسكّعُ والضياعُ..
- إنه الفقرُ والجوعُ والمرضُ.. والبطنةُ والشرهُ..
- إنه الجريمةُ وتجارةُ الجنسِ والقتلُ والابتزازُ..
- إنه ملاجئُ الصفيحِ.. وقصورُ المُترفينَ ومَزارعُ المُتخَمينَ..
- إنه هجيرُ الصحراءَ المُضني، وسراباتُ السُّبُلِ البعيدةِ الضبابيةُ..
- إنه الغَثيانُ والدُّوارُ والسُّعارُ المَحمومُ..

فهلمُّوا نشكُّ فيما بين أيدينا بعقلانيةٍ وفهمٍ، فنتحرّرَ من الخُرافةِ، والاستناداتِ الجاهليةِ، والعَصبياتِ.. حتّى لا نكونَ إمّعاتٍ نُكرِّرُ ما يقولُه الآخرونَ وما يفعلونَ؛ فنكونَ بذلكَ قد عطَّلنا عُقولَنا، وأصبَحنا ببغاءاتٍ، مُتفَيهقِينَ، مُتنطِّعينَ، وكأنّنا خُشُبٌ مُسنَّدةٌ، فليس كلُّ ما وصَل إلينا سيّئاً، ولا كلُّ ما وصَل إلينا حسناً، وليس كلُّ ما بين أيدينا بالياً، وليس كُلُّه حسناً.

إنَّ تَعرُّفَ الحقيقةِ، هو أوّلُ خُطوةٍ صحيحةٍ باتِّجاه تحقيقِ إنسانياتِنا، وتحريرِها من التُّرَّهاتِ.. فمَن تعرَّفَ الحقيقةَ في الصباحِ، يُمكِنهُ أن يموتَ في المساءِ، دونَ أن يشعُرَ بأسىً، كما يقولُ كونفوشيوس CONFICAUS.

(إنَّ في ذلكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أو ألقَى السَّمْعَ وهو شَهيدٌ) .

المراجعُ:

1. تدهور الحضارة الغربية –تأليف اسوالد شبنغ.لر– ترجمة أحمد الشيباني – منشورات دار مكتبة الحياة بيروت لبنان .
2. تاريخ حضارات العالم القديم –تأليف د. نعيم فرح – ١٩٧٥ دمشق
3. ورقة بحثية مقدمة لوزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية د. رحمة .
4. DICTIONNAIRE DE LA PHILOSOPHIE_ LAROUSSE PAR DIDIER JLIA 1964 – LIBRAIRIE LAROUSSE_ PARIS
5. LA NAUSEE_ PAR JEAN_ PAUL_SARTRE_ GALLIARD 1938
6. LHISTOIRE DES CIVILISATIONS_ LAGE DES CITES_ LIBRAIRIE HACHETTE 1961 JACQUES DE KERORGUEN
7. LA PEST PAR ALBERT CAMUS_ GALLIARD 1947
8. LE TOURISTE JEAN_PIERRE HUART_ 25 RUE PASCAL 54800 LILLE_ FRANCE ET SA FEMME FLORENCE